ضريبة التطور

بقلم الأستاذ سيد قطب

نحن نشكو ثقل الضرائب التى فرضت علينا أخيرا ، ونعارضها فى مجلسى البرلمان ونحاول دائما تخفيفها أو تنظيم أدائها بما لا يشق علينا . ولكنا فى الوقت نفسه نؤدى ضريبة أخرى أفدح من هذه الضرائب جميعا ، وأشقها كلفة علينا . ذلك أننا نؤديها من نفوسنا وأخلاقنا وسعادتنا وراحتنا ... ثم من ثروتنا أخيرا .

هذه الضريبة الفادحة هى ضريبة التطور !

وإننا فى غمرة هذه الموجة الجارفة لا نلتفت إلى فداحة هذه الضريبة ، وإن شكونا بعض أعراضها الظاهرة ، دون أن نفطن إلى أصل العلة . فقد شكونا الانحلال الخلقى : الفردى والاجتماعى ، وشكونا أزمة الزواج ، وشكونا اختلاف الأزياء ، وشكونا حيرة التقاليد بين القديم والجديد ، وشكونا كثيرا من هذه الأعراض ، دون أن نحاول إرجاعها إلى أصلها الوحيد العميق ... وهو التطور .

والتطور — مع هذا — سنة الحياة ، ووسيلة الفرد والجماعة إلى الرقى ، وثمرة الاستجابة لهذا الحافز الداخلى فى تركيبنا إلى التحسين والارتفاع ، والقنطرة التى تعبر عليها الانسانية من حياة الغابات والأدغال إلى حياة الجنة التى وعد بها المتقون !

فما بال التطور إذن يشق علينا هذه المشقة ، حتى ليبدو أفدح الضرائب التى تصيب حياتنا الروحية والمادية فى هذا الأوان ؟

مرجع هذا فى اعتقادى ، إلى أننا لم نشفق على أنفسنا ، ولم نجد فيها عنصر المحافظة العاقلة أو (الفرامل) التى تنظم خطواتنا فى هذا التطور ، وإن كنا وجدنا بدلها عناصر الجمود الميتة ، التى مزقتنا تمزيقا بينها وبين عناصر السرعة والعجلة ، وكلاهما يجذبنا فى عنف .

والواقع أن آباءنا وأجدادنا كانوا يؤدون نصيبهم من هذه الضريبة ، فلا بد لكل جيل من نصيب فيها ، ولكن " أقساطها " لم تثقل عليهم ، لأنها كانت خفيفة رفيقة ، ولأن خطواتهم كانت رفيقة وئيدة . ونحن لا نطالب جيلنا أن يسير على خطاهم ، ولكنا نناشده أن يرفق بنفسه فيكون وسطا .

إن الوضع الاجتماعى لشعب من الشعوب — بما فى ذلك تقاليده وعاداته واقتصاده وسياسته وتعليمه... — إنما هو ثمرة أخيرة لاستجاباته المتتالية لعوامل البيئة. هذه الاستجابات التى تترك آثارها فيما وراء الوعى ، فيسير الفرد وتسير الجماعة وفقا لما يرسب فى النفس الانسانية من آثار هذه الاستجابات المعينة ، والتى قد لا تظهر على السطح من هذه النفس المليئة بالأسرار .

فينبغى إذن أن نفهم الارتباط الوثيق بين تصرف الفرد والجماعة ، وبين الرواسب النفسية التى خلفها الزمن على طوال الأجيال ؛ وهو يخطو خطواته الوئيدة بكل شعب من الشعوب. وعلى مقدار تشابه هذه الخطوات بين الشعوب المختلفة ، يكون تشابه ما بينها فى الوضع الاجتماعى ويتوقف مدى صلاحية نقل التقاليد من أمة إلى أمة .

ولقد قربت وسائل الاتصال السريعة بين عقليات الشعوب المختلفة فى هذا الزمن ، فأصبح ميسورا أن تتقارب الثقافة العقلية بين هذه الشعوب . ولكن ترى تقارب ما بين الرواسب البطيئة بفعل عوامل الزمن الطويلة فى نفوس الأمم المختلفة؟ هذا ما لا أعتقده ، ولا تعتقده الدراسة النفسية كذلك للفرد ، والدراسة الاجتماعية للشعب .

ومن هنا يجب التريث والحذر ، حين ندعو أية دعوة لنقل تقليد أو وضع اجتماعى معين من أمة أخرى إلينا ، لأننا إذا استطعنا أن ننقل الظواهر ، فلن نستطيع أن ننتج فى أعماق النفوس الاستعداد الباطنى لتلقى هذا الوضع ، الاستعداد الذى تنضجه السنون على مهل ، وتكونه الاستجابات الطويلة البطيئة فى النفوس .

وكل الآلام التى نعانيها اليوم من جراء التطور ، إنما كان منشؤها عدم الانتباه إلى هذه الحقيقة .

* * *

وبعد فإذا كان عالم كبير مثل "فرويد" يحاول تفسير النشاط الانسانى كله ، بل نشاط الأحياء جميعها ، إلى " الغريزة الجنسية " فنحن لا نريد أن نغلو غلوه ، ولكننا لا نغفل أثر هذه الغريزة فى ذلك النشاط .

ومن هنا يحق لنا أن نبحث أعراض التطور المفاجئ فى دائرة المرأة ، محاولين أن ننظم تطورنا فى هذه الدائرة ، لنطمئن حياتنا قليلا من هذا الاضطراب ، الذى يصيب هذا الجيل فى هدوئه وراحته وسعادته وأخلاقه .

إن القفزة التى قفزتها المرأة المصرية بعد الحرب العظمى هى سبب هذا الاختلال كله فى حياتنا الاجتماعية، وأنا لا أستطيع أن أدعو إلى احتجاب المرأة، ولا أطيق هذا الاحتجاب فى عصرنا الحاضر، ولكنى لا أفهم سفورها على الوضع الذى تلج فيه .

لقد عاشت المرأة المصرية فى ظلام الحصور ، تتنفس بمقدار كما تتنفس السمكة فى الماء وتبصر النور من خلال " الشيش " حقيقة ومعنى ! وظل مجتمعنا المصرى محروما من غداوة المرأة وفضائها الكامنة ، ظل مجتمعا جافا كئيبا موحشا . وكان لهذا أثر سيئ فى أخلاقنا وتقاليدنا وتربيتنا وفنوننا وكل مظاهر نشاطنا وحيويتنا .

فلما آن للمرأة أن تخرج إلى النور ، وأن تتنفس فى الجو الطلق، لم تمرن على الخروج برفق وأناة ، ولكنا شقت طريقها إلى الشارع ، وهى تنفض عنها بعنف أثقال الماضى ، وتفتح عينيها بشدة على أضواء المدنية التى تعشى الأبصار، وتبعد عنها كل يد هادية ، وكل عين راعية .

وهنا كان الانحلال الخلقى الذى نشكوه ، وكانت أزمة الزواج التى نخشاها ، وكان غيرهما مما تركنا الحديث فيه .

لقد كان أجدادنا يختارون زوجاتهم من داخل البيوت ، لا يعرفون عنهن شيئا إلا حسب الأسرة وأخلاقها الظاهرة ، و إلا أوصافا ينقلها إليهم سيدات الأسرة بعد مشاهدة العروس . وكان أجدادنا ، مع هذا سعداء فى بيوتهم ، موفقين فى زيجاتهم لأنهم ملائمون بين الوضع الاجتماعى الذى يعيشون فيه و بين تصرفهم فى الحياة .

وسيختار أحفادنا زوجاتهم من زميلات الدراسة ، وصواحب النادى ، ورفيقات الطريق . وسيكونون سعداء فى حياتهم موفقين فى زيجاتهم ، لأنهم درسوا خطيباتهم ، ولاءموا بينهم و بين عصرهم الذى سيكونون فيه .

أما نحن شبان هذا الجيل ، فنؤدى ضريبة التطور كاملة بين أجدادنا وأحفادنا وبين آبائنا وأبنائنا ، وعلى قنطرة من سعادتنا وأخلاقنا تعبر الأجيال القادمة ، لا فرق فى هذا بين الشبان والشابات .

نحن الذين لا نستطيع أن نركن إلى اختيار أمهاتنا وأخواتنا من يشأن لنا من الزوجات لأننا تجاوزنا هذا الوضع الاجتماعى، ولا نستطيع أن نطمئن إلى اختيارنا من نعرف من الفتيات لأن اللواتى يظهرن لنا نبلوهن لسن خير الفتيات ، ولأن أطيب الأسر لا تزال بعيدة عن الأنظار ، ولا تزال فتياتها العانسات غير معروفات ، فاذا خرجن ليعرفن حامت حولهن الشكوك وآذنهن الأشواك .

وهذا هو جحيم التطور الذى يغشى هذا الجيل من بين الأجيال .

أفلا علاج لهـذه الحالة ، ولا رحمة فى أداء الضريبة ؟ هناك علاج ، ولكنه يتطلب آباء وأمهات يعرفون جميعا تبعتهم الثقيلة ، وينهضون جميعا للقيام بهذه التبعة ، ويتطلب مشرفين على التعليم والثقافة يولون تربية المرأة عناية خاصة مقصودة لذاتها بين فروع التعليم الأخرى .

فأما الآباء والأمهات فواجبهم اختيار طريق للاختلاط أضمن وأشرف من هذا الاختلاط المجنون الملوث الذى نعانى آثاره فى هذا الجيل .

فى كل أسرة فتيان وفتيات ، ومن الخطر أن نطلق الجميع يختلطون بعيدا عن الأنظار — فى هذا الطور من أطوارنا الاجتماعية — ولكن الأسر تستطيع أن تتزاور بهيئتها كاملة وأن تقضى بعض السهرات فى اختلاط عائلى تحت إشراف الآباء والأمهات .

وفى هذا الجو العائلى ستنشأ صداقات بريئة ، ودراسات صحيحة ، وائتلاف روحى له ثمرته ، وسيؤدى إلى زيجات سعيدة فى كثير من الأحيان .

ولن نغنم من هذا حلا مناسبا لأزمة الزواج ، ولكنا سنغنم مجتمعا نديا بشوشا تخطر فيه المرأة المهذبة الشريفة ، تكلؤها رعاية يقظة حازمة . فتشيع فيه النشاط والأمل والابتسام وهى فى حصانة من الشر ، ومنأى عن الخطر ، وسلامة من مزالق الطريق . وسيشق هذا القول على كثير من المحافظين ، ولكنى أناشدهم أن يلقوا نظرة الى اختلاط الطريق وما وراءه ، فى حراسة الشيطان ، فسيهون عليهم حينئذ اختلاط الأسر فى حراسة الاباء والأمهات !

وأما المشرفون على تربية المرأة فسبيلهم إعداد دراسة خاصة مناسبة للفتاة ، تصلح بها للمهمة الاجتماعية العظمى التى تنهض بها ، ولقد فصلت هذا فى كلمة خاصة بعدد شهر أبريل من هذه المجلة ، فلا داعى هنا لإعادة هذا التفصيل .

أما الطفرة التى صرنا إليها فى اختلاط الطريق وفى تربية الفتاة ، فهى علة هذا الشقاء الذى نعانيه ، ونحن نضطرب بين وراثات كامنة فى دمائنا ، ومظاهر اقتبسناها ولم تمثلها نفوسنا .

وارحم أنفسنا ترحما السماء .

سيد قطب